تنويعات على مقام حجاز

محمد حسين القاضي

حين جئت المدينة . .
كانت سماء من الرمل خلف منازلها
والحقيبة تمسك مني يداً ، وتدور
وأيدي المدينة تحمل وجهي للشمس محترقاً
(من يدلّ الغريب الذي ليس يعرفه أحدٌ ؟)
وتكمّشت بالغصن أزرق
أي نهار من الأس ينأى
فيهوي الندى بي إلى الرمل شيئاً فشيئا
ترى أين ألقاك آنستي . . ؟

قد تساءل أهل المدينة حين رأوني هنا :
ـ من يكون الغريب ؟
وأوقفني الشرطي قليلاً
وكنت أخبىء وجهكِ هذا الطفولي ما بين ثوبي وجلدي
وأسأل عنك الدروب التي ضيّعتني طويلا
وأرفع عينيّ نحو شبابيك مغلقةٍ ،
تابعاً ظلّكِ الهاربَ الأبديّ
وأمضي مع المارة المسرعين وخطوتي المستجيرة وحدي
أتعرفني لو رأتني آنستي . . ؟

ولماذا أتيتُ أنا
وتباعدتِ أنت ؟
لماذا أتيتكِ في آخر العمر أبحث عن وردة هربت من صباي
وعطرك ذاك الخفيُّ يعاودني دائماً
موقظاً في عروقي داء الحنين المقيم .

هل أحاول أن أصف الآن عينين واسعتين
ولا يملأ الشوك والرمل أغنيتي . .
آه . . والميرمية آنسةٌ طلبتني ذات نهار خميس بعيد
فكانت يداك تبوحان
(والشاي في الكوب يخدر . .)

ثم تزيحان عن وجهك الخصل المستفزةَ
أو تغفوان على مفرش من نقوش خرافيةٍ ورسوم .

هكذا عندما كانت العين تنظر في العين
يهرب طير الكلام من الشفتين ،
وننسى . .
ورائحة الميرمية آنسةٌ
والندى عاشق صامت الدمع ليس يبوح
وكنا على وهج اللحظة البكر محترقين نحوم .

وتدورين بي . أي شيء يحاصرني بك . . ؟
هل هو صدرك هذا الذي يتبرعم خلف الفساتين
في غفلة من يدي .
أهي ساقك حين تريحينها فوق أخرى
أم الجسد المتدفق ملء العباءة . . ؟
بل هو شيء من الحزن بين ذراعيّ يطفو رويدا
ويُسقط في نهر روحيَ أوراقَ أغصانه ويبلّلها بالنجوم .

ما الذي يحدث الآن . . ؟
ها هو ذا عريُك الصحراوي يدركني بين صبّارة وجناح قطاةٍ
فألقي عليك قميص السماء الرمادي مستغفراً
بينما أتنسم منك رياح السموم .

ويحدثني الرملُ أن الينابيع تشحب عندك
انكِ عطشى إلى قطرةٍ من ظلال معتقةٍ
(ونهار من النخل خلف البنايات يفنى . .)
ترى هل لقيتك أم أنني أقتفي أثري الضائع
الآن فيك سدى .
باحثاً عن ملامح وجهي القديم ؟!

الرياض